

نشأة الدولة حسب نظرية العقد الاجتماعي

يرى أنصار العقد الاجتماعي ان التنظيم الإنساني و انتقال البشر من وضع المجتمع الطبيعي إلى حالة المجتمع المدني قد تم بتدخل عقل الإنسان دون سواه، إذ رفع الأبيقوريون دعوهم أن الإنسان ليس كائنا اجتماعيا بالفطرة، بل إن سعيه لتحقيق السعادة الفردية هو ما دفع للانتقال للمجتمع المدني، فالمدينة وليدة أعمال العقل في الظروف التي تهيئها البيئة الطبيعية.

و قد تداول الرومان فكرة العقد الاجتماعي كما أنها موجودة في الفكر المسيحي، غير أن النظرية لاقت رواجاً منقطع النظير في عصر النهضة الغربية حينما نادى بها العديد من كبار الفلاسفة و منهم توماس هوبز.

هوبز (1588-1679) : قصد هوبز بالحق الطبيعي حرية كل انسان في أن يستخدم قوته وفق ما يشاء هو نفسه من أجل الحفاظ على حياته، و بالتالي في أن يفعل كل ما يرى بحكمته و عقله أنه أفضل السبل لتحقيق ذلك، في حين يعني بالقانون الطبيعي المبدأ أو القاعدة العامة التي يجدها العقل، و بها يمنع الإنسان ما هو مدمر لحياته أو ما يقضي على وسائل الحفاظ عليها و من اهمال ما يظن أنه يمكن أن يحفظها.

و الفرق بين الحق و القانون الطبيعيين أن الحق يقوم على حرية الفعل أو عدمه، بينما القانون فيحدد و يلزم بأحد الأمرين.

و يتمثل قانون الطبيعة الأول في نظر هوبز في سعي الإنسان إلى السلام، و يتبع هذا القانون و يشتق منه القانون الطبيعي الثاني و هو: على الإنسان أن يكون مستعداً حين يكون الآخرين أيضاً مستعدين أن يتخلى عن حقه في كل شيء بالقدر الذي يراه ضرورياً للسلام و للدفاع عن نفسه و أن يرضى لنفسه بقدر من الحرية إزاء الآخرين يساوي قدر حريتهم إزاءه.

من جانب آخر يرى هوبز أنه في كل مرة يفوض فيها انسان حقه أو يتخلى عنه، يكون إما من أجل حق فوض إليه بالمقابل، أو من أجل خير آخر يأمله من وراء ذلك، إنه فعل إرادي، و غرض الأفعال الإرادية عند كل انسان هو خير ما لنفسه، إن التفويض المتبادل للحقوق هو ما يسميه الناس عقداً. في سياق توضيح هدف العقد يقول هوبز: " إن السبب النهائي و الغاية و هدف البشر (التواقين بطبيعتهم إلى الحرية و ممارسة السلطة على الآخرين) من خلال فرض قيد على أنفسهم (و الذي يجعلهم يعيشون في إطار الدولة) يكمن في التحسب لما يضمن المحافظة على أنفسهم و تحقيق المزيد من الرضا في الحياة، و بعبارة أخرى يكمن

هدفهم في الخروج من حالة الحرب البائسة هذه التي كما سبق و ذكرنا، هي نتيجة ضرورية للأهواء الطبيعية التي تسير البشر"¹.

كذلك يرى هوبز أن هناك وسيلتان لقيام السلطة، تتمثل الأولى في القوة الطبيعية كما يفعل أي رجل مع أولاده بهدف اخضاعهم لحكمه، أما الوسيلة الأخرى فهي اتفاق البشر فيما بينهم على الخضوع لشخص أو مجموعة أشخاص و ذلك طوعيا من باب الثقة، طامحين بأن يحميهم من كل الآخرين، و هذه الوسيلة الثانية يطلق عليها هوبز بالدولة السياسية أو الدولة بموجب فعل التأسيس، في حين تسمى الأولى بالدولة بموجب فعل الإكتساب.

¹ - الليفيانان، الأصول الطبيعية و السياسية لسلطة الدولة، هوبز، ترجمة ديانا حبيب حرب و بشرى صعب، دار الفارابي، ط 1، 2011، ص 176